صوم رمضان بين الأدب والقرآن

مجيد خزاعي*

الملخص

جعل الله الصوم طهارة للقلوب، وسلامة للأبدان. وإذا تترتب على الصوم كل هذه الفوائد، فبالطبع إنه كان موجودا لدى الشرائع السماوية الأخرى، لأن الله لايأمر عباده بشيء، إلا وفيه فوائد روحية، وجسدية. ووجود الصوم في الأديان الأخرى لايحتاج إلى إقامة دلائل تاريخية كثيرة، لأن الله صرّح بهذه الظاهرة الطيبة المباركة في الكتاب المبين إذ قال في محكم آيات: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (البقرة: ١٨٣). يريد هذا المقال أن يدرس هذا المكتوب في القرآن الكريم وفي الشّريعة الإسلامية الغرّاء من ناحية، وفي الأدب العربي من ناحية أخرى، ليبين أنه كان له تأثيره الواضح في هذا الأدب الذي استمد مضامينه لدى كثير من الشعراء من القرآن والإسلام. ومن الملاحظ أن هناك شعراء كثيرين ذكروا هذه العبادة الإلهية في قصائدهم، إلا أننا اكتفينا بنماذج قليلة جدا.

الكلمات الدليلية: القرآن، الإسلام، الأدب، الصوم، الصيام، رمضان، الهلال، العيد

*عضو هيئة التدريس بجامعة آزاد الإسلامية في جيرفت Majid.Khazace@yahoo.com

تاريخ دريافت: ٢٥ /٣/ ١٣٨٩
تاريخ پذيرش: ٢١ /٥/ ١٣٨٩

معنى الصوم اللغوى، والاصطلاحى

الصَّوْمُ ترک الطعام والشَّراب والنِّكاح والكلام؛ صام يَصُوم صَوْماً وصِياماً، واصْطامَ، ورجل صائمٌ وصَوْمٌ، من قوم صُوَّام وصُيّام وصُوَّم، بالتشديد، وصُيَّم، قلبوا الواو لقربها من الطرف، وصِيَّم عن سيبويهِ، كسروا لمكانِ الياء، وصِيَام وصَيَامى، الأخير نادر، وصَوْم وهو اسمٌ للجمع، وقيل هو جمع صائم، وقوله عز وجل: إِنِّى نَذَرْتُ للرَّحْمَنِ صَوْماً قيل معناه: صَمْتاً. ويُقوِّيه قوله تعالى: فَلَنْ أُكلِّمَ اليَومَ إِنْسِيّاً وفى الحديث قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم، قال الله تعالى: «كلُّ عملِ ابنِ آدمَ له إلاّ الصَّومَ فإنه لى». قال أبو عبيد: إنما خص الله تبارک وتعالى الصَّومَ، بأنه له وهو يَجْزى به، وإنْ كانت أعمالُ البرِّ كلُّها له، وهو يَجْزى بها، لأن الصَّوْمَ ليس يَظْهَرُ من ابنِ آدمَ بلسانٍ ولا فعْلٍ، فتَكْتُبه الحَفَظَةُ. إنما هو نِيَّةٌ فى القلب وإمْساكٌ عن حركة المَطْعَم والمَشْرَب. يقول الله تعالى: «فأنا أتولَّى جزاءه على ما أُحِبُّ من التضعيف وليس على كتاب كُتِبَ له». ولهذا قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم: «ليس فى الصوم رياءٌ». وقال سفيانبن عُيَيْنة: الصَّوْمُ هو الصّبر، يصبر الإنسان على الطعام والشراب والنكاح، ثم قرأ: إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرونَ أَجْرَهم بِغَيرِ حِسَابٍ وقوله فى الحديث: صَوْمُكُمْ يومَ تَصُومون، أى أن الخَطأ موضوع عن الناس فيما كان سبيلُه الاجتهاد، فلو أنَّ قوماً اجتهدُوا، فلم يَرَوا الهلال إلا بعدَ الثلاثين، ولم يُفْطِروا حتى اسْتَوْفَوا العددَ، ثم ثَبَت أن الشَّهرَ كان تِسْعاً وعشرين، فإن صَوْمَهم وفطْرهم، ماضٍ ولا شىء عليهم من إثْم أو قضاء. وكذلک فى الحج إذا أخطأوا يومَ عَرفة والعيد، فلا شىء عليهم. وفى الحديث، أنه سُئل عمَّنْ يَصُومُ الدهرَ، فقال: لا صامَ، ولا أفْطَرَ، أى لم يَصُمْ ولم يُفْطِرْ. كقوله تعالى: فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى وهو إحباطٌ لأجْره، على صومه، حيث خالف السنّة. وقيل هو دُعاءٌ عليه كراهيةً لصنيعه، وفى الحديث: فإن امْرُؤٌ قاتَلَهُ أو شاتَمه، فَلْيَقُلْ إنى صائمٌ، معناه: أن يَرُدَّه بذلک عن نفسه، ليَنْكَفَّ. وقيل: هو أن يقول ذلک فى نفسه، ويُذَكِّرَها به، فلا يَخُوضَ معه، ولا يُكافئَه على شَتْمه، فَيُفْسِدَ صَوْمَه، ويُحْبِطَ أجْرَه. وفى الحديث: إذا دُعِىَ أحدُكم إلى طعام، وهو صائمٌ، فَلْيَقُلْ إنى صائم،

يُعَرِّفُهم بذلك لئلا يُكْرِهُوه على الأكل، أو لئلا تَضيقَ صدورُهم بامتناعه من الأكل. وفى الحديث: مَنْ مات، وهو صائمٌ، فلْيَصُمْ عنه وَلِيُّه. قال ابن‌الأثير: قال بظاهره قومٌ من أصحاب الحديث، وبه قال الشافعى فى القديم، وحَمَلَه أكثرُ الفقهاء، على الكفَّارة، وعَبَّر عنها بالصوم، إذ كانت تُلازمُه. ويقال: رجلٌ صَوْمٌ، ورجُلان صَوْمٌ، وقوم صَوْمٌ، وامرأة صَوْمٌ، لا يثنى ولا يجمع، لأنه نعت بالمصدر، وتلخيصه رجلٌ ذو صَوْم، وقوْم ذو صوم، وامرأة ذاتُ صَوْم، ورجل صَوَّامٌ قَوَّامٌ، إذا كان يَصُوم النهارَ، ويقومُ الليلَ. ورجالٌ ونساءٌ صُوَّمٌ، وصُيَّمٌ، وصُوَّامٌ، وصُيَّامٌ. قال أبو زيد: أقمتُ بالبصرة صَوْمَين، أى رَمضانين. وقال الجوهرى: رجل صَوْمانُ أى صائمٌ، وصامَ الفرسُ صَوْماً، أى قام على غير اعْتلاف، المحكم وصامَ الفرَسُ على آرِيِّه صَوْماً وصِياماً، إذا لم يَعْتَلِفْ. وقيل: الصائمُ من الخيل، القائمُ الساكنُ الذى لا يَطْعَم شيئاً. قال النابغة الذُّبيانى: خَيْلٌ صِيامٌ وخيلٌ غيرُ صائمةٍ تحتَ العَجاج وأُخرى تَعْلُكُ اللُّجُما. قال الأزهرى فى ترجمة صون: الصائن من الخيل، القائمُ على طَرَفِ حافِره من الحَفاء، وأما الصائمُ، فهو القائمُ على قوائمه الأربع، من غير حَفاء. وفى التهذيب: الصَّوْمُ فى اللغة الإمساكُ عن الشىء والتَّرْكُ له، وقيل للصائم، صائمٌ، لإمْساكه عن المَطْعَم، والمَشْرَب، والمَنْكَح. وقيل للصامت: صائم، لإمساكه عن الكلام، وقيل للفرس صائم، لإمساكه عن العَلَف مع قيامه، والصَّوْمُ تَرْكُ الأكل. قال الخليل: والصَّوْمُ قيامٌ بلا عمل. قال أبو عبيدة: كلُّ مُمْسِكٍ عن طعام، أو كلام، أو سير، فهو صائمٌ. والصَّوْمُ البيعةُ، ومَصامُ الفرس ومَصامَتُه، مَقامُه ومَوْقِفُه. وقال امرؤ القيس: كأنَّ الثُّرَيّا عُلِّقَتْ فى مَصامِها بأمْراسِ كَتّانٍ، إلى صُمِّ جَنْدَل. ومَصَامُ النَّجْم، مُعَلَّقُه. وصامَتِ الريحُ، رَكَدَتْ. والصَّوْمُ، رُكُودُ الريح. وصامَ النهارُ صَوماً، إذا اعْتَدَلَ، وقامَ قائمُ الظهيرة. قال امرؤالقيس: فدَعْها، وسَلِّ الهَمَّ عنْكَ بجَسْرةٍ ذَمُولٍ، إذا صامَ النهارُ وهَجَّرا. وصامَتِ الشمسُ، استوت، وصامَتِ الشمسُ عند انتصاف النهار، إذا قام، ولم تَبْرَحْ مكانَها. وبَكْرةٌ صائمةٌ، إذا قامت، فلم تَدُرْ. قال الراجز: شَرُّ الدِّلاءِ الوَلْغَةُ المُلازِمَهْ، والبَكَراتُ شَرُّهُنَّ الصَّائِمهْ؛ يعنى التى لا تَدُورُ. وصامَ النَّعامُ، إذا رَمَى بذَرْقِه، وهو صَوْمُه المحكم. صامَ

النعامُ صَوْماً، أَلْقَى ما فى بطنه، والصَّوْمُ عُرَّةُ النَّعام، وهو ما يَرْمى به من دُبُره. وصامَ الرجلُ، إذا تَظَلَّلَ بالصَّوْم، وهو شجرٌ عن ابن‌الأعرابى. والصَّوْمُ شجرٌ، على شَكْلَ شخص الإنسان كريهُ المَنْظَر جِدّاً، يقال لثَمره: رؤُوس الشياطين. يُعْنى بالشياطين: الحَيّاتُ، وليس له وَرَقٌ. وقال فقيه: للصَّوْم هَدَبٌ، ولا تَنْتَشرُ أَفْنانُه. ينْبُتُ نباتَ الأثْل، ولا يَطُولُ طُولَه، وأكثرُ مَنابته بلادُ بنى شَبابة. قال ساعدةبن جُؤَيَّة: مُوَكَّلٌ بشُدوفِ الصَّوْم يَرْقُبُها، من المَناظِر مَخْطوفُ الحَشَا زَرِمُ شُدُوفُه شُخوصُه. يقول: يَرْقُبها من الرُّعْب، يَحْسَبُها ناساً، واحدتُه صَوْمة. قال الجوهرى: الصَّوْمُ شجرٌ فى لغة هُذَيْل. قال ابن‌برى: يعنى قول ساعدة موكّل بشدوف الصوم يبصرها من المعازب مخطوفُ الحَشَا زَرِمُ، وفسّره، فقال: من المَعازب من حيث يَعْزُبُ عنه الشيء، أى يتباعد، ومخطوفُ الحَشا، ضامرُه وزَرِم، لا يَثْبُتُ فى مكان، والشُّدُوفُ الأَشخاص، واحدها شَدَفٌ. قال ابن‌برى: وصَوامٌ جَبَلٌ. قال الشاعر: بمُسْتَهْطِعٍ رَسْلٍ، كأَنَّ جَديلَه بقَيْدُومِ رعْنٍ مِنْ صَوامٍ مُمَنَّع (ابن‌منظور، ١٩٩٨م: مادة صوم).

والصوم اصطلاح فقهى يطلق على امتناع الإنسان عن المبطلات – التى تأتى شرحها لاحقا – منذ صلاة الفجر حتى المغرب لإنجاز التكاليف الإلهية. والبمطلات هى ١. الأكل أو الشرب، ٢. الجماع، ٣. الاستمناء، ۴. الكذب على الله والرسول وأولياه، ۵. إيصال الغبار الغليظ إلى الحلق، ۶. غمس الرأس كله فى الماء، ٧. كون الإنسان جنبا أو حائضا أو فى النفاس حتى صلاة الفجر، ٨. الإمالة، ٩. القيء (الموسوى الخمينى، ١٣٧٠ش: ٢٢٧).

الصوم فى الأديان السماوية

الغالبُ على أحوال الأمم فى جاهليتها وبخاصة العرب هو الاستكثار من تناول اللذات من المآكل، والخمور ولهو النساء، والدعة، وكل ذلك يوفر القُوى الجسمانيةَ والدموية فى الأجساد، فتقوى الطبائع الحيوانية التى فى الإنسان من القوة الشهوية والقوة الغضبية. وتطغَيان على القوة العاقلة، فجاءت الشرائع بشرع الصيام، لأنه يفى بتهذيب تلك القوى،

إذ هو يمسك الإنسان عن الاستكثار من مثيرات إفراطها، فتكون نتيجتُه تعديلَها فى أوقات معينة هى مظنة الاكتفاء بها إلى أوقات أخرى.

والصوم بمعنى إقلال تناول الطعام عن المقدار الذى يبلغ حد الشبع أو تركك بعض المأكل: أصل قديم من أصول التقوى لدى الملليين ولدى الحكماء الإشراقيين، والحكمة الإشراقية مبناها على تزكية النفس بإزالة كدرات البهيمية عنها بقدر الإمكان، بناء على أن للإنسان قوتين: إحداهما رُوحانية مُنبثة فى قرارتها من الحواس الباطنية، والأخرى حيوانية منبثة فى قرارتها من الأعضاء الجسمانية كلها، وإذ كان الغذاء يخلف للجسد ما يضيعه من قوته الحيوانية إضاعةً تنشأ عن العمل الطبيعى للأعضاء الرئيسية وغيرها، فلا جرم كانت زيادة الغذاء على القدر المحتاج إليه توفر للجسم من القوة الحيوانية فوق ما يحتاجه وكان نقصانه يقَتِّر عليه منها إلى أن يبلغ إلى المقدار الذى لا يمكن حفظ الحياة بدونه، وكان تغلب مظهر إحدى القوتين بمقدار تضاؤل مظهر القوة الأخرى، فلذلك وجدوا أن ضعف القوة الحيوانية يقلل معمولها فتتغلب القوة الروحانية على الجسد ويتدرج به الأمر حتى يصير صاحب هذه الحال أقرب إلى الأرواح والمجردات منه إلى الحيوان، بحيث يصير لا حَظَّ له فى الحيوانية إلاّ حياة الجسم الحافظة لبقاء الروح فيه، ولذلك لزم تعديل مقدار هذا التناقص بكيفية لا تفضى إلى اضمحلال الحياة، لأن ذلك يضيع المقصود من تزكية النفس وإعدادِها للعوالم الأخروية، فهذا التعادل والترجيح بين القوتين هو أصل مشروعية الصيام فى الملل ووضعيته فى حكمة الإشراق، وفى كيفيته تختلف الشرائع اختلافاً مناسباً للأحوال المختصة هى بها بحيث لا يفيت المقصد من الحياتين، ولا شك أن أفضل الكيفيات لتحصيل هذا الغرض من الصيام هو الكيفيَّة التى جاء بها الإسلام. قيل فى هياكل النور: النفوس الناطقة من جوهر الملكوت إنما شغلها عن عالمها القوى البدنية ومشاغلتها، فإذا قويت النفس بالفضائل الروحانية وضعف سلطان القوى البدنية بتقليل الطعام وتكثير السهر تتخلص أحياناً إلى عالم القدس وتتصل بأبيها المقدس وتتلقّى منه المعارف، فمن الصوم ترك البراهمة أكل لحوم الحيوان

والاقتصار على النبات أو الألبان، وكان حكماء اليونان يرتاضون على إقلال الطعام بالتدريج حتى يعتادوا تركه أياماً متوالية، واصطلحوا على أن التدريج فى إقلال الطعام تدريجاً لا يخشى منه انخرام صحة البدن أن يَزِن الحكيم شبعهُ من الطعام بأعواد من شجر التين رطبة ثم لا يجددها فيَزن بها كل يوم طعامه لا يزيد على زِنّتها وهكذا يستمر حتى تبلغ من اليبس إلى حد لا يُبس بعده فتكون هى زنة طعام كل يوم (ابن‌عاشور التونسى، ١٤١٥ق: ١٨٤).

وفى حكمة الإشراق للسهروردى: وقبل الشروع فى قراءة هذا الكتاب يرتاض أربعين يوماً تاركاً للحوم الحيوانات مقللاً للطعام منقطعاً إلى التأمل لنور الله. وإذ قد كان من المتعذر على الهيكل البشرى بما هو مُسْتَوْدَعُ حياة حيوانية أن يتجرد عن حيوانيته، فمن المتعذر عليه الانقطاع البات عن إمداد حيوانيته بمطلوباتها فكان من اللاّزم لتطلب ارتقاء نفسه أن يتدرج به فى الدرجات الممكنة من تهذيب حيوانيته وتخليصه من التوغل فيها بقدر الإمكان، لذلک كان الصوم أهم مقدمات هذا الغرض، لأن فيه خصلتين عظيمتين؛ هما الاقتصاد فى إمداد القوى الحيوانية وتعود الصبر بردها عن دواعيها، وإذ قد كان البلوغ إلى الحد الأتم من ذلک متعذراً كما علمت، حاول أساطين الحكمة النفسانية الإقلال منه، فمنهم من عالج الإقلال بنقص الكميات وهذا صوم الحكماء، ومنهم من حاوله من جانب نقص أوقات التمتع بها وهذا صوم الأديان وهو أبلغ إلى القصد وأظْهر فى ملكة الصبر، وبذلک يحصل للإنسان دُربة على ترک شهواته، فيتأهل للتخلق بالكمال فإن الحائل بينه وبين الكمالات، والفضائل هو ضعف التحمل للانصراف عن هواه وشهواته:

إذَا المرء لم يَتْرُک طعاماً يُحبُّه ... ولم يَنْهَ قلباً غاوياً حيث يمما
فيُوشک أن تلقَى له الدهرَ سُبَّةً ... إذا ذُكِرتْ أمثـالُها تَمْلأُ الفما

فإن قلت: إذا كان المقصد الشرعى من الصوم ارتياضَ النفس على ترک الشهوات وإثارة الشعور بما يلاقيه أهلُ الخصاصة من ألم الجوع، واستشعار المساواة بين أهل

الجدة والرفاهية وأهل الشظف فى أصول الملذات بنى الفريقين من الطعام والشراب واللهو (ابن‌عاشور التونسى، ١٤١٥ق: ١٩٨).

وتأكيدا على ما أسلفناه قبل قليل بخصوص وجود الصيام فى الأديان السماوية نشير إلى قول الله عز وجل حيث قال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (البقرة: ١٨٣). وعندما نقرأ هذه الآية نعى أن الصيام أمر إلهى مطلوب فى كل الأديان، لأن للصوم أهدافا، لابد من بلوغها على مستوى كل الأديان منها: المواساة بين الغنى والفقير ليستشعر حاجته، والتذكير بالنعم التى نغفل عنها فى زحمة الحياة، والتذكير فى الآخرة، حيث أورد نبينا الأكرم فى خطبة شهر رمضان: واذكروا بجوعكم وعطشكم، جوع وعطش يوم القيامة. ثم إن للصوم حكمة أخرى أشرنا إليه آنفا، ألا وهى: صوموا تصحوا، والنصوص تؤكد على أن للصوم أثره الفعال فى الجانب الصحى. ولو نظرنا إلى كل الأديان لوجدنا قواسم مشتركة فيما بينها ألا وهى الارتقاء بالإنسان إلى مدارج الكمال فكيف تحدثت الأديان عن الصوم؟ الصوم فى الإسلام: جاء فى الحديث القدسى: كل عمل ابن آدم له، إلا الصيام، فإنه لى وأنا أجزى به. والصوم فى الإسلام نوع من العلاقة بين العبد وربه، وذلك لنيل الكمال الإنسانى المطلوب من قبل المولى جل وعلا، فقطع النفس عن حاجاتها المادية، تعنى العودة إلى المصدر. فكلما ابتعد عن هذه الماديات كلما كان يسير باتجاه ربه أكثر. قال رسول الله (ص وآله): الصوم جُنَّة من النار (أى حماية من النار). وبالصوم تتم عملية قطع التعلقات القلبية بالدنيا، وتقوية عامل الإرادة، والاستعداد للآخرة التى هى دار البقاء، وشهر رمضان، هو عبارة عن دورة تدريبية على مواقف الآخرة فى هذا الشهر، حيث يفرغ الإنسان قلبه من كل التعلقات الدنيوية، ويغلق قلبه عما سوى الله. فقد جاء فى الحديث القدسى: ما وسعتنى أرضى، ولا سمائى، ولكن وسعنى قلب عبدى المؤمن. وباب العبور للعبادة الصحيحة، هو الصوم فقد جاء فى الحديث: لكل شىء باب، وباب العبادة الصوم. فلذا كانت وصايا أهل البيت(ع) لنا أن لا يتحول صيامنا إلى صوم عن الطعام، والشراب،

بل أرادوا أن يكون صوما، حتى بالجوارح، والجوانح.

والصوم يحتل مكانة هامة ويعتبر فى كل الأديان منسكا ومن الأمور التى تساهم فى تطهير الروح.

فالصوم فى الإسلام كما عرّفه النبى الأكرم: لكل شيء باب وباب العبادة الصوم، وأما كيفيته فقد تحدث القران الكريم: وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ (البقرة: ١٨٧). والشريعة السمحاء لم ترض بالصوم عن الطعام والشراب فحسب، بل ذهبت إلى أبعد من ذلك، حيث نادت بصوم الجوارح كالعين، واللسان، والسمع. وفم الصائم أطيب عند الله، من ريح المسك؛ وينعم بفرحتين، إذا أفطر، وإذا لقى ربه.

أما أهل الأديان السماوية الأخرى كالنصارى فإنهم يتفقون معنا فى الهدف الرئيسى من الصيام، ولكنهم يختلفون معنا فى التفاصيل. فالنصارى هم أهل الكتاب وأهل الإنجيل وهم يسمون أنفسهم بالمسيحيين نسبة إلى المسيح عيسى عليه السلام، وهو نبى من أنبياء بنى إسرائيل كما جاء فى القرآن الكريم: إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ؛ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِى الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ (آل‌عمران: ۴۵ و ۴۶). كما قال تعالى: وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ؛ وَرَسُولاً إِلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّى أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِى الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ؛ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ؛ إِنَّ اللهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (آل‌عمران: ۵۱ – ۴۸). وفى المسيحية، الصوم هو الامتناع عن كل طعام، وشراب، من نصف الليل إلى الاثنتى عشر ظهرا, بينما البعض الآخر يرى أن الصوم هو امتناع عن الأكل والشرب من الصباح إلى المساء.

وهم يصومون عادة يوم الأربعاء من كل أسبوع لأنه يوم المشاورة على موت المسيح عندهم، ويوم الجمعة لأنه صلب عندهم فيه المسيح، ويوم الميلاد وعددها ۴۳ يوما تنتهى قبيل عيد الفصح. ودواعى الصوم عند إخواننا المسيحيين، هى الرغبة فى التعمق الروحى، وطلب القوة لقهر العدو الروحى للإنسان ألا وهو الشيطان كما جاء فى إنجيل متى: «هذا الجنس لا يخرج إلا بالصلاة والصوم». كما أن الصوم ليس للتكفير عن خطايا سابقة بل لأجل تقوية العلاقة مع الله (فعالى، ۱۳۷۸ش: ۴۵).

كما يعبر لدى المسحيين، الصوم عن تواضع الإنسان، ورجائه، ومحبته. وأما مسألة الأربعين يوما، فهى تعود إلى أن المسيح(ع) قد صامها فى البرية، تكتّما، إشارة إلى التعبير الصادق عن الرجاء الذى يفتح القلب للبر الباطنى، ومن هنا فإن من أهم مميزات الصوم عند المسيحيين، هى السرية امتثالا لقول المسيح كما جاء فى كتبهم: «متى صمت، فأدهن رأسک، واغسل وجهک لكى لا تظهر للناس صائما بل لابيک الذى فى الخفاء». ويقصد به الرب (سعيدى روشن، ۱۳۷۵ش: ۷۸).

أما الدين السماوى الآخر، فهو اليهودية واليهود هم الذين يزعمون أنهم أتباع نبى الله موسى عليه السلام وكتابهم التوراة، وقد جاء ذكرهم فى القرآن الكريم كثيرا، لما لهم من صفات، وأخلاق مذمومة، وملعونة، كما جاء ذكرهم فى التنزيل العزيز: وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْکَ مِنْ رَبِّکَ طُغْيَاناً وَكُفْراً وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ (المائدة: ۶۴).

واليهود يصومون يوما واحدا فى السنة يسمى يوم الكفارة، ويبدأ صيامهم فيه من المساء إلى المساء، حيث يمتنعون عن الأكل والشرب، بينما يقوم المتعصبون منهم دينيا بصوم الاثنين والخميس من كل أسبوع. فاليهود الأتقياء، كانوا يقومون بالصيام، بدافع تقواهم الص، وذلک إتماما لعنصر البر، كما حددته الشريعة والأنبياء. ونسأل أين هم اليوم من الشرائع السماوية وهم يستبيحون مهد الأنبياء؟ (فعالى، ۱۳۷۸ش: ۹۲)

الصوم فى القرآن الكريم

هناك آيات فى القرآن الكريم تؤكد على ما ذكرناه آنفا بشأن وجود الصوم فى الأديان السماوية قبل دين الإسلام، فهذه هى مريم التى علمها الله تعالى كيفية التعامل مع أهلها بعد أن رزقت بعيسى عليه السلام، إذ قال الله تعالى: فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (مريم: ٢٦). أى: صمتا، وقُرئ كذلك، وكان صيامهم السكوت، فكانوا يصومون عن الكلام كما يصومون عن الطعام. وذكر ابن‌العربى فى الأحوذى: أن نبينا -عليه وعلى آله الصلاة والسلام- اختص بإباحة الكلام لأمته فى الصوم، وكان محرمًا على من قبلنا، عكس الصلاة.

وأشار الله تعالى فى التنزيل العزيز إلى بعض أحكام الصوم مباشرة حيث قال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ؛ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ؛ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (البقرة: ١٨٣ - ١٨٥).

كما أشار إلى أمور فقهية أخرى فى هذه الآيات المباركة: أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِى الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (البقرة: ١٨٧). وهذا صيام شهر رمضان فيه تمرين النفوس على ترك محبوبها الذى ألفته طاعة لله ومحبة له، وتقربًا إليه، وفيه من تعويد النفوس

وتمرينها على قوة العزيمة والصبر على طاعة الله، وفيه تقوية داعية الإخلاص لله، وتقديم محبته على محبة النفس، ولذلك كان الصوم لله، اختصه لنفسه من بين سائر الأعمال، والصيام مهذب للنفوس، ومصفى للأرواح، ومطهر للأجسام، فله أثر عجيب فى حفظ القوى الباطنة وحمايته من الخلط الذى يضر بالجسم ويفسد المعدة، ومن فوائد الصيام المحسوسة إحساس الصائم بحاجة الفقراء إلى المساعدة والمعونة، ولهذا أوجبه الله على جميع الأمم.

وجعل الله الصيام فدية للقصور فى بعض المناسك، حيث قال جلّ وعلا: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لله فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا الله وَاعْلَمُوا أَنَّ الله شَدِيدُ الْعِقَابِ (البقرة: ١٩٦).

كما جعل الصوم كفارة لبعض الذنوب والمعاصى إذ قال عزّ وجلّ: وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ الله وَكَانَ الله عَلِيمًا حَكِيمًا (النساء: ٩٢).

وقال تعالى: وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ والله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ؛ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِالله وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ الله وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (المجادلة: ٣ و ٤).

وقال عزّ وجلّ: لَا يُؤَاخِذُكُمُ الله بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ

فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (المائدة: ٨٩).

وقال جلّ وعلا: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَو عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَف وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللهُ مِنْهُ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (المائدة: ٩٥).

ويكفينا من عظَمة شهر رمضان أن الله تعالي أنزل القرآن في هذا الشهر وأشار إلى هذا بقوله تعالى: إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ؛ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ؛ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ؛ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ؛ سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (القدر: ٥ - ١).

الصوم، أنواعه، وأحكامه في الفقه الإمامي

هو عند الإمامية ركن من أركان الشريعة الإسلامية، وينقسم من حيث الحكم إلى ثلاثة أقسام: ١. واجب وهو قسمان: واجب بأصل الشرع، وهو صوم شهر رمضان، وواجب بسبب كصوم الكفارة، وبدل الهدى، والنيابة، والنذر، ونحوها ٢. مستحب: كصوم رجب، وشعبان، ونحوهما، وهو كثير ٣. حرام: كصوم العيدين وأيام التشريق. قيل ومكروه: كصوم يوم عرفة، وعاشوراء، وهو نسبي. والتزام الشيعة بصيام شهر رمضان قد تجاوز الحد، حتى أن الكثير منهم يشرف على الموت من مرض، أو عطش، وهو لا يترك الصيام، فالصلاة والصوم هما العبادة البدنية المحضة.

الصيام في كل الأيام مستحب عدا ما يجب فيه الصيام كأيام شهر رمضان وعدا ما يحرم فيه الصيام بالذات كيومي العيدين وما يحرم الصيام بالعارض كصيام يوم العاشر في محرم فرحاً بمقتل الحسين وأهل بيته (عليهم السلام) .

يستحب الصيام للإنسان إذا توفرت فيه الشروط التالية. الأول: أن لا يكون مريضاً

أو يسبب له الصيام مرضاً. الثانی: أن لا يكون مسافراً، ويستثنى من ذلک الصيام ثلاثة أيام فی المدينة المنورة لقضاء الحاجة فی أيام الأربعاء، والخميس، والجمعة، على نحو التتابع. الثالث: أن لا تكون المرأة حائضاً أو نُفساء. الرابع: أن لا يكون على المكلف قضاء شهر رمضان ولا صيام الكفارة والتعويض. إذا كان عليه صيام واجب بالنذر ونحوه فلا يمنع هذا الصيام المستحب فيجوز له أن يصوم صياماً مستحباً ويصح منه (حلبی، ۱۴۱۰ق: ۷۶).

إذا استأجر نفسه للصيام عن غيره فوجب عليه أن يصوم عن الغير, فمثل هذا الصيام الواجب بالإجارة لا يمنع عن الصيام المستحب, فيجوز له أن يصوم صياماً مستحباً ويصح منه.

إذا كان على المكلف قضاء صيام رمضان أو كان عليه صيام الكفارة أو صيام التعويض فإنه ۱. لايصح، ولا يجوز له أن يصوم صياماً مستحباً عن نفسه، ۲. لايصح، ولا يجوز له أن يتبرع بالصيام عن غيره، ۳. يصح ويجوز له أن يؤجر نفسه للصيام عن الغير وفی هذه الحالة إذا صام عن الغير صح ذلک منه حتى ولو كان عليه القضاء أو صيام الكفارة أو صيام التعويض، ۴. يبطل نذره فيما إذا نذر أن يأتی بالصيام المستحب قبل صيام القضاء أو صيام الكفارة أو صيام التعويض فالنذر باطل من الأساس ولا يصح منه ذلک الصيام المنذور، ۵. يصح نذره فيما إذا نذر الإتيان بالصيام المستحب بدون تحديد بأن يكون قبل صيام القضاء أو قبل صيام الكفارة أو صيام التعويض، وفی هذه الحالة ينعقد نذره، ويصح ولكن يجب عليه: أولاً، أن يقضی ما عليه من صيام، أو يؤدی ما عليه من صيام كفارة أو تعويض, وبعد ذلک يصوم ما نذره. يصح الصيام المستحب من المرأة بدون إذن زوجها, نعم إذا طلب منها ترک الصوم, بدافع الرغبة بالاستمتاع بها ومقاربتها فلا يصح منها الصيام المستحب. يكفی فی نية الصيام المستحب أن ينوی فی الليل صيام نهار الغد قربة إلى الله تعالى. يستمر وقت ومجال النية للصيام المستحب إلى آخر النهار.

إذا لم يكن المكلف قد مارس فی نهاره شيئاً من المفطرات، وبدا له أن يصوم استحباباً قبل الغروب بساعة أو بضع دقائق (مثلاً) جاز له أن ينوی الصيام المستحب، ويصح منه ولا يضر بذلک أنه لم يكن ناوياً للصيام طيلة النهار أو أنه كان عازماً على الإفطار ما دام لم يفطر فعلاً (فيض، ۱۳۷۱ش: ۵۹).

يجوز للإنسان فی الصيام المستحب أن يصبح جنباً متعمداً، فإذا حصلت منه جنابة فی الليل وهو يريد أن يصوم فی النهار استحباباً فلا يلزمه أن يغتسل قبل طلوع الفجر، ويصح صيامه وكذلک إذا أفاق من نومه صباحاً فوجد نفسه محتلماً جاز له أن يصوم ذلک النهار استحباباً.

يجوز للصائم صياماً مستحباً أن يهدم صيامه متی شاء قبل الزوال أو بعده، ولا شیء عليه. يتحصل مما سبق بعض الأمور. الأول، المفطرات التسعة تشترک فيها كل أنواع الصيام. الثانی، الإفطار عن سهو، ونسيان لا يبطل الصيام بكل أنواعه. الثالث، النية لا يجوز أن تتأخر عن طلوع الفجر فی صيام شهر رمضان وفی الصوم المنذور وفی يوم معين، والنية تمتد إلی ما بعد طلوع الفجر لكنها لا يجوز أن تتأخر عن الزوال بل يجب أن تحدث قبل الزوال، هذا فی باقی أنواع الصيام الواجب، والنية يستمر وقتها إلی ما بعد الزوال فی الصيام المستحب. الرابع، تعمد البقاء على الجنابة ليلاً إلی أن يطلع الفجر لا يجوز فی شهر رمضان، ويبطل به الصيام وكذلک يبطل به صيام قضاء شهر رمضان وكذلک يبطل به صيام الكفارة الواجب وصيام التعويض الواجب، أما فی الصيام المستحب أو الصيام المستحب الذی وجب بنذر أو عهد أو يمين، فلا يضر بها تعمد البقاء على الجنابة بل تقع صحيحة. الخامس، الإصباح محتلماً أی إذا أفاق من نومه صباحاً فوجد نفسه محتلماً، فإنه يضر بصيام قضاء شهر رمضان ويبطله أما باقی أنواع الصيام فلا يبطلها الإصباح محتلماً. السادس، نسيان غسل الجنابة حتی يطلع الفجر. مبطل لصيام شهر رمضان. ولصيام قضاء شهر رمضان. أما باقی أنواع الصيام الواجب، والمستحب فلا يبطلها نسيان غسل الجنابة حتی يطلع الفجر بل الصيام صحيح.

السابع، هدم الصيام، والإفطار لا يجوز فى كل صيام واجب معين وجب صيامه فى ذلك النهار كصيام نهار شهر رمضان أو صيام نهار نذر مكلف أن يصومه بالذات أما فى صيام قضاء شهر رمضان، فيجوز الإفطار وهدم الصيام قبل الزوال أما بعد الزوال فلا يجوز الإفطار وفى غير تلك الحالات يجوز هدم الصيام والإفطار مطلقاً سواء كان قبل الزوال أو بعده. الثامن، لايصح الصيام بكل أنواعه من المريض الذى يضر به الصوم. التاسع، لايصح الصيام بكل أنواعه من الحائض والنفساء. العاشر، لايصح الصيام فى السفر إلا إذا أصبح واجباً بالنذر ونصّ الناذر على ذلك، و إلا فى بعض أقسام الصيام كصيام الكفارة وصيام التعوى (حلبى، ١٤١٠ق: ٨٣).

الصوم فى الشعر العربى

كان لفظ الصيام موجودا فى الشعر العربى منذ العصر الجاهلى وإذا كان هذا اللفظ لايدل على هذا المعنى الذى نقصد به فى شريعتنا الإسلامية فإنه كان بمعنى الامتناع عن الطعام، والشراب، أو الإمساك، والترك؛ فنرى النابغة الذبيانى يقول:

خيلٌ صِيامٌ وخيلٌ غيرُصائمةٍ تحتَ العَجاجِ وخيلٌ تَعْلِكُ اللُّجُما

(النابغة الذبيانى، ٢٠٠١م: ١٣٢)

بينما قال الأعشى فى نفس المعنى:

وقوفاً بما كان من لأمةٍ وهنَّ صيامٌ يلكن اللجم

(الأعشى، لاتا: ١٥٦)

كما أنشد لبيدبن ربيعة العامرى فى وصف فرس وهو أحد الشعراء البارزين فى تلك الحقبة:

وصُحْمٍ صِيامٍ بَينَ صَمْدٍ ورَجْلةٍ وبيضٍ تؤامٍ بينَ ميثٍ ومذنبِ

(العامرى، ١٩٨٢م: ٣٢)

هذا وأنشد بشربن أبى خازم فى نفس المعانى التى سبقت فى شعر هؤلاء الشعراء:

أَتُوعِدُنِي بقَوْمِكَ يا ابنَ سُعْدَى وما بَيْنِي وبَيْنَكَ مِن ذِمامِ
متَى ما أَدْعُ فِي أَسَدٍ تُجِبْنِي مُسَوَّمَةٌ على خَيْلٍ صِيامِ
تَتَابَعُ نَحوَ داعِيها سِراعاً كما انْسَلَّ الفَرِيدُ مِن النِّظامِ

(الأصفهانی، ۱۹۹۷: ج۵، ص۲۴۰)

إلى أن ظهر الإسلام وانتشر فی شبه الجزيرة العربية. وبالرغم من ركود الأسواق الشعرية، اتجه بعض الشعراء نحو القريض.وظلت التعاليم الإسلامية تنعكس فی شعر صدر الإسلام بين مؤيد ومعارض. والمعارضون كانوا فی الغالب من الذين لم يسلموا أو الذين أسلموا إسلام سوء كشبيل‌بن ورقاء، وهو من زيدبن كليب‌بن يربوع، وكان شاعراً جاهلياً، أدرک الإسلام وأسلم إسلام سوءٍ، وكان لا يصوم شهر رمضان، فقالت له بنته، ألا تصوم؟ فقال:

تَأْمُرُنی بالصَّوْمِ لا دَرَّ دَرُّها وفی القَبْرِ صَوْمٌ لا أَبَاكِ طَوِيلُ

(المصدر نفسه، ج۱۲: ۱۹۲)

وبالرغم من كل هذا كان هناک شعراء دافعوا عن الإسلام بالمعنى الحقيقی للكلمة، ورفعوا لواء الإسلام ومدحوا النبی وآل بيته المعصومين، منهم كعب‌بن زهير الذی حصل على بردة النبی المباركة، فهذا هو ينشد مخاطبا زوجته:

فاصبری مثلَ ما صبرتِ فإنی لا إخالُ الكريمَ إلاّ صَبُورَا
أيَّ حينٍ وقد دببتُ ودبَّتْ ولَبِسْنا من بَعْدِ دَهْرٍ دُهُورَا
أخرج السَّيرَ والهواجر منها قَطِراناً ولو رُبَّ عصيرا
يومَ صومٍ من الظهيرةِ أو يو مَ حُرُورٍ يَلَوِّحُ اليعفورا

(ابن‌زهير، ۱۴۱۷ق: ۴۷)

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل ناقش الشعراء موضوع الصوم فی شعرهم وأشادوا بفضله كما أشاروا إلى تفاصيل هذه العبادة، قال بعضهم:

إذا حاولتَ صومَ الدَّهرفاقصدْ صيامَ ثلاثةٍ من كلّ شهرِ

وشهرَ الصبر إنَّ الصوم فيه يكفِّرُ كلَّ معصيةٍ ووزْر
ويجزى الربُّ فعل العبدفضلاً ولطفاً منه واحدةً بعشر
(السيوطى، ١٩٩٠م: ١٩٨)

وفى العصور التالية ظهر أثر الصيام فى الشعر كثيرا إذ ذكره شعراء كثيرون، لايمكن الإشارة إلى كل هؤلاء فى هذه العجالة، ومن العصور الخصبة لموضوع الصيام يمكننا أن نشير إلى العصر العباسى الذى أكثر فيه الشعراء ذكر الصوم وما يتعلق به، كما نرى أبا منصور الثعالبى يرحب بهذا الشهر الكريم:

سلامٌ على العمل الصالح وغادٍ من النُّسكِ أو رائح
سلامٌ على السَّنَنِ المستقيم سلامٌ على المَنْجرِ الرَّابح
سلامٌ على صَومِ يومِ الهجيرِ وهبةِ ذى مدمعٍ سافح
(الخفاجى، ٢٠٠٤م: ٤٧)

وأشار محى الدين‌بن عربى إلى هذه المناسبة الدينية فى أشعاره بكثرة منذ بدء هذا الشهر المبارك وحتى آخره:

أهلَّ الهلالُ لشهرِ الصيامِ وشهرِ الزكاة وشهرِالقيام
فصامَ الحكيم على اسم الصفاتِ وأفطرَ ذاتاً بدارِ السلام
وقالَ أنا الحقُّ فاستمتعوا بنور التجلى وحسِّ الكلام
تعالى الهلالُ بأوصافه على بدرهِ الفردِ عندَ التمام
(ابن‌عربى، ٢٠٠٥م: ١٢٤)

وتأكيدا لمكانة الصوم العظيمة، يتحدث محى الدين‌بن عربى فى الآيات التالية عن الصوم، ويحبذ تكرار الكلمة للتعظيم، كما يشير إلى أن هذه العبادة لله عز وجل وهو بذلك يشير إلى الحديث القدسى المشهور: كل عمل ابن آدم له، إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به.

الصومُ لله العظيم بشرعه وإذا أضيفَ إليَّ كانَ محالا
الصومُ لله الكريم وليس لى لكنْ إذا ما صمتهُ وتعالى

عن صومنا فيكون ذاک الصوم لـی نقصـاً وفـی حقِّ الإلهِ کمـالا
إنّ الصیـامَ لـهُ العلـوُّ جلالـة صـامَ النهارُ إذا النهـارُ تعـالی
وعلـوّ قـدر العبد فیـه خضوعُـه حتـی یکون من الخضوعِ سَفالا
والفِطر لی بالکـر و هو حقیقتـی فإذا فتـحتُ جعلتـه المحـلالا

(المصدر نفسه: ۱۱۲)

واستخدم المتنبی شهر رمضان فی إحدی مدائحه، وهو شاعر لانری فی قصائده روح المضامین الدینیة:

الصومُ والفطرُ والأعیادُ والعُصُر منیرةُ بک حتی الشمسُ والقمرُ
ما الدهرُ عندک إلا روضةُ أنُفُ یا مـن شمائلهُ فـی دهره زَهَرُ
ما ینتـهی لـکَ فی أیامه کرمُ فلا انتهی لک فـی أعوامه عُمرُ
فإن حظَّک من تکرارها شرفُ وحظُّ غیرک منها النومُ والسَّهَرُ

(المتنبی، ۱۹۹۵م: ج۳، ص۱۲۷)

ویحث أبوالعلاء المعری علی الصوم والصلاة فی لزومیاته ما یؤکد نزعاته الدینیة، خلاف ما یتصوره البعض حول إلحاده:

وأعجَزُ أهلِ هذی الأرضِ غاوٍ، أبانَ العَجزَ عن خمسٍ فُرِضنَه
و صُمْ رمضانَ مُختاراً مُطیعـاً، إذِ الأقـدامُ من قَیـظٍ رَمِضنَه

(أبوالعلاء المعری، ۱۹۹۷م: ۱۸۴)

ولکنه أشار فی مکان آخر أن هذه المناسک لیست إلا لوصول الإنسان إلی غایات کبری ولم یجعل الله هذه المناسک لعذاب الإنسان بل لترکه المعاصی:

ما الخیرُ صومٌ یذُوبُ الصّائمونَ له ، ولا صلاةٌ ، ولا صوفٌ علی الجسدِ
و إنّما هوَ ترْکُ الشـرّ مُطّرَحـاً، ونفضُکَ الصّدْرَ من غِلٍّ ومن حسَد
ما دامـت الوحْشُ والأنعامُ خائفةً فَـرْساً، فما صَحّ أمرُ النُسک للأسد

(المصدر نفسه: ۸۲)

وابن‌المعتز بوصفه أميرا شاعرا يرحب بالعيد فى أحسن صورة أدبية:

قَـدِ انْقَضَتْ دَوْلَةُ الصِّيـام وَقَـدْ ... بَشَّـرَ سُقْـمُ الْهِـلالِ بِالْعِيـدِ

يَتْلُـوُ الثُّـرَيَّا كَفـاغِرِ شَبِـرِه ... يَفْتَـحُ فاهُ لأكْـلِ عُنْقُـودِ

(ابن‌المعتز، ٢٠٠٣م: ٦٥)

وها هو يشير إلى هلال العيد فى مكان آخر:

أهلاً بِفِطْـرٍ قَـد أضـاء هلالُـه ... فالآنَ فاغْدُ على الصِّحاب وبَكِّـرِ

وانظُـرْ إليـه كزورقٍ من فِضَّـةٍ ... قَـد أثقلتْـهُ حمولةٌ من عَنْبَـرِ

(المصدر نفسه: ٧٣)

وهكذا يقول ابن‌الرومى فى ختام رمضان واستقبال عيد الفطر:

و لما انقضى شهر الصيام بفضله ... تجلّى هلالُ العيدِ من جانبِ الغربِ

كحاجبِ شيخٍ شابَ من طُولِ عُمْرِه ... يشيرُ لنـا با لرمز للأكْلِ و الشُّرْبِ

(ابن‌الرومى، ١٩٨٥: ٤٩)

النتيجة

رأينا فى السطور السابقة أن شهر رمضان بكل ما يتضمنه من معان دينية وروحية، لم يكن مناسبة يغفلها الأدب والشعر العربى، ولذلك وجدنا الأدباء والشعراء، فى مختلف العصور يحتفلون بهذا الشهر الكريم، ويحسنون استقباله من خلال إظهار آثار الصوم على عادات الناس وسلوكياتهم، باعتباره شهرا للهداية، والنصر، والكرم، والجود، وحسن الخلق، كما هجا الشعراء من يرتكب المعاصى فى رمضان.

ورأينا أن الأدب العربى منذ عصر صدر الإسلام، حفل بكثير من صور التعبير عن الحب والتقدير لشهر رمضان الكريم. واستمرت هذه الصور الشعرية لدى الشعراء ورأينا الشعراء فى العصر العباسى يخلقون صورا شعرية رائعة فى وصف رمضان، والهلال، وقدوم العيد.

المصادر والمراجع

القرآن الکریم

ابن‌الرومی، أبوالحسن علی‌بن العباس. ۱۹۸۵م. الدیوان، تحقیق مفید قمیحة. بیروت: دار الفکر

ابن‌المعتز، عبدالله. ۲۰۰۳م. الدیوان، تقدیم راجی الأسمر. بیروت: دار الکتاب العربی

ابن‌زهیر، کعب. ۱۴۱۷ق. الدیوان. بیروت: دار الکتاب العربی

ابن‌عاشور التونسی، محمد الطاهر. ۱۴۱۵ق. التحریر والتنویر فی التفسیر. بیروت: دار التراث الإسلامی

ابن‌عربی، محی‌الدین. ۲۰۰۵م. الدیوان. دمشق: دار الهلالی

ابن‌منظور، محمدبن مکرم. ۱۹۹۸م. لسان العرب. بیروت: دار صادر

أبوالعلاء المعری، أحمدبن عبدالله. ۱۹۹۷م. اللزومیات. دمشق: دار ابن‌کثیر

الأصفهانی، أبوالفرج علی‌بن الحسین. ۱۹۹۷م. الأغانی. بیروت: دار الفکر

الأعشی، میمون‌بن قیس. لاتا. الدیوان. بیروت: دار الکتاب العربی

حلبی، تقی‌بن نجم. ۱۴۱۰ق. الکافی فی الفقه. بیروت: مؤسسة فقه الشیعة ودار الإسلامیة

الخفاجی، محمد عبد المنعم. ۲۰۰۴م. الحیاة الإسلامیة فی العصر العباسی. بیروت: دار الوفاء

سعیدی روشن، محمد باقر. ۱۳۷۵ش. تحلیل الوحی عن منظار المسیحیة والإسلام. طهران: مؤسسة الفکر للثقافة

السیوطی، جلال الدین. ۱۹۹۰م. الازدهار فی ما عقده الشعراء من الأحادیث والآثار. القاهرة: نهضة مصر

العامری، لبیدبن ربیعة. ۱۹۸۲م. الدیوان، قدم له صلاح الدین الهواری. بیروت: دار العلم للملائین

فعالی، محمد تقی. ۱۳۷۸ش. الإیمان الدینی فی المسیحیة والإسلام. طهران: مرکز الشباب للأفکار

فیض، علی رضا. ۱۳۷۱ش. مبادی فقه و اصول. طهران: جامعة طهران

المتنبی، أبوالطیب أحمدبن الحسین. ۱۹۹۵م. الدیوان، تعلیق عبدالرحمن البرقوقی. بیروت: دار الکتب العلمیة

الموسوی الخمینی، روح الله. ۱۳۷۰ش. توضیح المسائل. قم: دار اسلامی للنشر والتوزیع

النابغة الذبیانی، معاویة‌بن زیاد. ۲۰۰۱م. الدیوان، علق علیه غرید الشیخ. بیروت: منشورات الأعلمی